حماية الضعيف

حماية الضعيف هى شرع الفروسية الأسمى ، وعلة وجودها ، بل إنها خلاصة الفروسية بأكملها . فى هذه الوصية الثامنة والأخيرة — « واجب الفارس أن يعين النساء والآرامل والأيتام ، والرجال ذوى الضائقة والمغلوبين على أمرهم »[1] إيجاز يشمل جميع مواد قانون الفروسية . إنها وصية تنطوى وحدها على فضائل الفرسان كلها ، ذلك أنا قد نستطيع تمثل رجل باسل خالى القلب من الكرم ، أو آخر سخى مسلوب الشجاعة ، ولكنا لن نستطيع تخيل حام للضعيف تنقصه صفة من صفات الفارس الجوهرية . إن معنى حماية الضعيف ضد القوى ، ومعنى الانتصاف للمظلوم من الظالم ، أن يشفق المرء على المنكوب ، وأن يعطف على كل ذى كربة ، وأن يجعل ذراعه فى خدمة الحق المهضوم ، وأن يتصدى متطوعًا لنصرة الخير على الشر الجائر . أفلا يصدر المرء فى ذلك عن أكرم الحوافز ، وعن روح البذل والتضحية ؟ ما أيسر أن يستسلم المرء للحياة يحياها مغمضًا عينيه مغلقًا أذنيه لكيلا يرى أو يسمع شيئا مما ينالنا رأسًا ولا يعود علينا بغير التكدير والتنغيص . ما أبسط أن يصنع المرء ذلك ويلتزم حيادًا دقيقًا ما دام القاتل سواه . ولكن نفس الفارس من معدن آخر فليس

---

(١) لاكورن دى سانت باليه : الفروسية القديمة جـ١ ص ١٢٩ .

شيء مما يمس الإنسانية بالغريب عنها . بل إنها لتتضامن وإياها وتختلط بها وتتحد . إنها تثور على كل جور أينما اقترف ، وتشعر بالمهانة إذا لحق بالحرية أذى ، فتحتدم غضبا وتهب دون روية أو حساب لخطر ، هبة جندى العدل والحق ، وتنبرى للجائر تدفعه وتتحداه . . .

لقد استخدم فرسان البيداء قوتهم وشجاعتهم أنبل استخدام ، فجعلاهما رهن إشارة البائسين ، بنفس السخاء الحنى الفياض الذى كانوا به يغدقون أموالهم . لا يبتغون بذلك جزاء ولا يترددون ، بل كانوا يقفون عزيمتهم كلها على الانتصاف لمن لاذ بهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا [1]

وكانت للحماية بينهم شرائع صارمة يتبعونها كشرائع الضيافة . فلم يكن يجوز لامرئ أن يرفض حماية ضعيف أو مظلوم استنجد به ، كما لم يكن يجوز له أن يرفض إيواء مرتحل ألم بداره . وكما كان القوم لا يميزون بين الضيف والمضيف ، كذلك كانوا لا يميزون بين الجار والجار ، بين الحامى والمحمى . فلقد كانا يحملان نفس الاسم ويسعيان إلى نفس الغاية ، يحتضن الجار الحامى قضية الجار المحمى حتى يجعلها قضيته . وكان العرب فوق ذلك يقولون إن الحماية وهمية ما لم تحقق غرضها المقصود ، ولا يبالون الهلاك فى سبيل ذلك الغرض [2] . وهكذا كان الرجل الضعيف إذا

(١) ديوان الحماسة ج ١ ، ص ١٦ .

(٢) كتاب نقائض جرير والأخطل ، مخطوطة سنة ٥٠٥ هـ . ، بمكتبة زكى باشا بالقاهرة .

احتمى برجل قوى ، ضمن أن يكون فى مأمن حتى موت حاميه على الأقل ، فلقد كان أبناء هذا الأخير — فى أغلب الأحيان — وعائلته بل قبيلته بأسرها — إذا استدعى الأمر — تحل محله وتواصل الأخذ بالثأر إلى أن يرضى المستجير . ولقد كان المجير من ناحية أخرى — لما ينطوى عليه إقدامه من مروءة وتعرض للخطر — فى منزلة عالية مرموقة . وكان لقب المجير شرفًا ، وتحيةً لقدر المقاتلين وولائهم وكرم أنفسهم ، ولذلك كانوا يتنازعون هذا اللقب . فعندما ترك الشاعر الحطيئة حاميه ، « الزبرقان » وأراد أن يلجأ إلى عربى آخر يدعى « بغيض » اتجه « الزبرقان » إلى الخليفة عمر مطالبًا ببقاء الشاعر لديه، فقرر عمر أن يوضع « الحطيئة » فى أرض خلاء وأن يخير بين مجيريه[1] . وهكذا يسهل فهم ما ذهب إليه العرب من التشرف بكثرة من يلوذون بحماهم .. لقد كانوا يرحبون بكل قادم ، دون أن يهتموا بمعرفة اسمه أو أصله ، أو باستطلاع علة شكواه أو موضوع مطالبه . كانوا يتبنونه ، يتولون أمره كله ويعتبرونه فردًا من أفراد العائلة تجب له المحبة والحماية وجوبًا طبيعيًّا . ولم يكن بد من أن يؤدى هذا الغوث المتعجل الكريم إلى كثير من الإفراط . وكم من مرة رأى القوم رجالاً ذوى شمم وشجاعة يستّرون بسواعدهم مذنبًا ، ويؤازرونه فى دعواه ضد عائلات بل وقبائل بأكملها . إنهم يفون بعهدهم إلى حد الحطيئة ،

---

(١) كاترمير : « مذكرات فى الملاجىء عند الغرب » ضمن « أمشاج من التاريخ وفقه اللغات الشرقية » ص ١٩٠ .

ويحمون الجار بريئًا كان أم آثمًا ، ويناصرونه ولو عاداه الجميع ، ما داموا لم يشرطوا حمايتهم بشرط ، ولم يتحروا من قبل عن الحافز الذى دفعه إليهم . ولقد كانوا يرون من العار على الفارس الشهم أن يبدأ بالتحرى عن قضية قبل أن يتولى الدفاع عنها ، وأن يظهر بمظهر المساوم أو بمظهر من يعطل حمايته . لقد كان ذلك فى نظرهم هو الدليل على قلب هاوع متردد ، وهمة قاعدة لا تجرؤ على أن تلتزم قبل أن تصف الأرقام وتتبين أن العملية مريحة لا تنذر بأى خطر . ولعل « بونيفاس مركيز مونفيرا » قد لبى هذه العواطف ذاتها حينما أقحم نفسه فى خطر محقق ، لكى يخلص فتاة من ربقة عم يظلمها . وكذلك زج بنفسه سيد آخر — فيما يقول « ريمبودى فاكيراس » — لمناصرة « بيير دى مانزاك » الذى اختطف السيدة « دى تيرسى » ، ومضى زوجها يطالب بها ويطاردها[1] .

كانت القاعدة إذن — لدى العرب على الأقل[2] — هى الترحيب بالمستجير وحمايته حماية عمياء ضد الجميع . ولقد أدى ذلك إلى ضروب من الإفراط — كما قلنا — ولكن القوم حاولوا أن يستدركوها . فلم يكن

---

(١) فوريل : تاريخ الشعر البروفنسى ج ١ ص ٤٨٣ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٨٧ وما يليها : « كان الفارس ملزماً بأن يستخدم بأسه استخداماً كريماً . . . ويود الباحث أن يتأكد من مقدار تدخل الفروسية فى العلاقات الاجتماعية والسياسية إبان العصر الوسيط بناء على وقائع إيجابية تعينه فى الوقت ذاته على تحديد طبيعة هذا التأثير ودرجته . ولكن التاريخ لم يحفظ مثل هذه الوقائع ، وإنما حفظت الأشعار شيئاً منها ، ومعظمها يتعلق بالمعاملات البيتية وينصب على السلطة الزوجية أو الأبوية .

من واجب الرجل القوى الذى ينشد ثأرًا أن يعنى بحماية عدوه أو عدو أهله من شره هو . وإلا لما كان أيسر الفرار من القضاص إذ ذاك ، إذ لا يتكلف العدو إلا أن يلتمس حماية عدوه ، وأن يقيم لديه حتى يبيت آمنا مطمئنا !

ولذلك اعتاد المرء — للإفلات من هذا الشرك — أن يعلن للمستجير : « أجرتك ما لم تكن فلانا » (أى العدو الذى أتعقبه) . ولقد حدث عندما طلب الخليفة هشام بن عبد الملك رأس الشاعر « الكيمت » ، أن ضاقت السبل فى وجه الشاعر ، وانتهى به الأمر إلى أن يلوذ بقبر ابن هشام ، فلما نظر الخليفة من إحدى نوافذ قصره ولمح رجلا جالسًا بالقرب من قبر ولده قال : « إن كان مستجيرًا بى فليجر ، ما لم يكن الكميت » . . . ومع ذلك فقد عفا عنه[1] .

وأدت الخبرة بالقوم إلى أن يصححوا شيئًا فشيئا ما كان فى حماية الأقدمين من شطط . لقد كانت حماية عامة ، فأصبحت أشد حذرا ، وأضيق حدودا ، ولونًا من المجاملة الشكلية . وغدوا يحمون المستجير من طائلة أشخاص معينين يذكرونهم[2] ، أو يحمونه من طائلة الجميع باستثناء أشخاص معينين تربطهم بهم أواصر النسب أو القربى أو الوفاء

---

(١) الأغانى الصغير جـ ١ ص ١١٦ — ١١٩ .

(٢) انظر ، فيما سبق ، فصل « الوفاء بالعهد » : قصة هانىء الذى أجار النعمان ضد ملك الفرس .

(عندما فر بشر بن أبي حازم من غضب قيس بن خارثة – وهو الجواد الكريم – لم يستطع أن يجد ملاذاً فى أى مكان ، فلقد كان يقال له أينما ذهب : « إننا نحميك من الجميع ما عدا قيس »)[1] .

ومما لا يحتاج إلى بيان أن الحماية كلما امتدت واتسعت حدودها كانت أكبر قدرا ، يسعى إليها القوم ويتغنى بمدحها الشعراء . ومن هنا كانت المباريات فى بذل الحماية ، على نمط المباريات فى السخاء وفى الحلم ، مما سبق أن تحدثنا عنه : أقبل الشاعر « الأعشى » يوما على « علقمة بن علاثة » سائلا أن يكون فى حماه ، فقبل أن يحميه من الإنس والجن ، وطلب الأعشى أن يحميه من الموت أيضا ، فرفض حينئذ قصد الأعشى عامر بن الطفيل ، فوعد بأن يحميه ولو من الموت ، فسأله الأعشى :

– وكيف أنت فاعل ؟

– إذا أتاك الموت وأنت فى حماى دفعت لأهلك ديتك .

وأعجب هذا الجواب الأعشى ، فأنشد يمدح عامراً ويهجو علقمة .

وذهب « أبو دواد » إلى أبعد من هذا المدى ، فلقد جعل فى حماه كعب بن مناه ، فكان إذا توفى له ولد دفع عنه ديته ، وإذا فقد « كعب » ناقة أو شاة عوضه عنها بمثلها ، حتى جرى على الألسنة هذا التعبير القائل « فى حمى أبى دواد[2] » .

---

(١) بلوغ الأرب ، ص ٨٤ .

(٢) كاترمير : « مقالة فى الملاجىء عند العرب » ص ٢٠٥ .

ولما كان العرب لا يستطيع أن يمتاز بعضهم على بعض بسعة الحماية أو بعدد من يتولون حمايتهم — وكل منهم يرغب مع ذلك فى أن يتفوق على صاحبه — فقد بلغ بهم الأمر أن بسطوا حمايتهم على الحيوان . وذات يوم حمل أحدهم رمحه ليذود عن قطيع من الجراد المطارد ، لأنه كان يحسب أن الجراد إذا حط لديه فقد فعل مستجيراً به من مطارديه ، وكان من واجبه إذن أن يلبى هذا الدعاء وأن يحمى تلك الحشرات الوثابة .

وعندما لمح « كليب وائل » حمامة تبنى عشها على أرض له ، قال يخاطبها — ولعله أراد أن يشكرها على ما أولته من ثقة : « أيتها الحمامة ، بيضى وأسجعى ولا تخافى . » وأعلن هنالك أنه قد جعل فى حماه جميع ما يؤم تلك المنطقة من الماشية ، بل ومن الكواسر أيضا .

ثم مضى فى نفس السبيل آخرون ، فأصبح هنالك مجيرو الطير ، ومجيرو الغزال ، ومجيرو الذئاب ، ومطعمو الوحش إلخ . . . وأدت هذه العادات الغريبة الكريمة إلى نشوء تقليد يخص فى بعض الأقطار على احترام طيور معينة ولا سيما الحمائم : فلقد كانت حمائم مكة منذ أقدم العصور تحظى بالمناعة التى أصبحت تتمتع بها حمائم ميدان « سان مارك » الأليفة[1]. وفى المسجد الذى أقيم بتبريز على ضريح غازان « كان من الفروض » أن تطعم جميع الطيور قمحا وذرة بيضاء طوال شهور الشتاء

(١) من المعروف أن حمائم « البندقية » كانت تقوتها الجمهورية تذكاراً لما أدته من خدمة لمدينة البندقية عند استيلائها على « كاندى » بقيادة الدوج « داندولو » .

الستة ، وكان من المحرم تحريمًا باتًّا أن يقتل واحد منها[1] » .

لقد حاولنا أن نحدد طبيعة الحماية عند العرب ومداها ، وبقى لنا أن نواجه سؤالين : كيف كان المستجير ينال الحماية ؟ وكيف كانت تنتهى الحماية ؟

كانت الحماية تسأل وتمنح بطرق مختلفة ، أبسطها — ولعلها أقدمها — أن يقصد المرء مقاتلا ويستجير به فى صوت مرتفع ، فيمتطى المقاتل على الفور جواده ، ويعلن أن هذا المجهول قد بات فى حماه . وإن لم يجد المرء مقاتلا ياوذ به — إذ لا يتاح دائما للطريد أن يبلغ مقاتلا مسلحا — كان من الممكن أن ياوذ بصبى . وكان قبول الصبى حمايته ملزمًا لأبيه أو لرئيس عائلته إذا كان يتيما . وفى كتاب « الأغانى » هذه القصة ، التى رأينا أن نسوقها للقارئ لأنها تتناول مشكلة الحماية التى يوليها المرء عدو قبيلته :

هرب الحارث بن ظالم ، فتوجه نحو اليمامة ، فلقى غلمة يلعبون ، فنظر إلى غلام منهم أخلقهم للخير عنده ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا بجير بن أبجر العجلى ، وله ذؤابة يومئذ ، وأمه امرأة قتادة بن مسلمة الحنفى . فأتاه وأخذ بحقويه والتزمه وقال : أنا لك جار . فأتى الغلام أباه فأخبره ، وأجاره وقال : ائت عمك قتادة بن مسلمة الحنفى فأخبره فأتى قتادة فأخبره فأجاره .

---

(١) كاترمير : المرجع السابق ذكره ، ص ٢٢٤ .

وأقبل بنو قيس يريدونه ، فقال قتادة :

ـ لو أخذتموه قبل دخوله الحصن لأسلمته إليكم ، فأما إذ تحرم بى فلا سبيل إليه .

فقالوا :

ـ أسيرنا اشتريناه بأموالنا ، وما هو لك بجار ولا تعرفه ، وإنما أتاك هاربا من أيدينا ، ونحن قومك وجيرتك .

ـ أما أن أسلمه أبدا فلا يكون ذلك . ولكن اختاروا منى إن شئتم : فانظروا ما اشتريتموه به فخذوه منى ، وإن شئتم أعطيته سلاحاً كاملا وحملته على فرس ، ودعوه حتى يقطع الوادى بينى وبينه ، ثم دونكموه .

فقالوا : رضينا . فقال للحارث ، فقال : نعم . فألبسه سلاحا كاملا وحمله على فرسه ، وقال له :

ـ إن أفلتهم فرد إلىّ الفرس ، والسلاح لك .

فخرج وتركوه حتى جاز الوادى . ثم اتبعوه ليأخذوه . فلم يزل يقاتلهم ويطاردهم حتى ورد بلاد بنى قشير ، وهو قريب من اليمامة أيضا . فلما صار إلى بلاد قشير يئسوا منه ، فرجعوا عنه . وعرفه بنو قشير ، فانطووا عليه ، وأكرموه . ورد إلى قتادة بن مسلمة فرسه ، وأرسل إليه بمائة من الإبل[1] .

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٢٥ وما يليها .

ويشاء سوء الطالع أحيانًا ألا يلقى المرء فى طريقه مقاتلا ولا صبيًّا ، فيضطر إلى أن يستجير بأى اسم ، كما حدث عندما أوشك « بنو حارث » أن يقتلوا « خالدا » ، فاستجار بواحد منهم يدعى « قس بن الصمة » . ولكن قسًّا كان غائبا ، ولم يفد خالد من الإهابة به شيئا ، فلما عاد قس بعد إعدام خالد ، غضب أشد الغضب ، وعاب على أهله ما ألحقوه به من هوان ، إذ بلغت الجرأة بهم أن يرفعوا يدهم على من احتمى باسمه[1] .

ويروى مؤرخو العرب أن امرأة من « عمورية » هوجمت ، فصرخت : « واامحمداه ! وامعتصماه ! » وأنبئ بذلك الخليفة المعتصم ، فامتطى على التو جواده ، وتبعته كتائبه ، وحاصر « عمورية » . ولم تلبث المدينة حتى سلمت ، فدخلها المعتصم وهو يصيح : « هأنذا قد أجرتك يا امرأة[2] » .

ولدينا من شعر أبى تمام ، شاعر المعتصم ، قصيدة جميلة تشيد بهذه الواقعة الفرسانية الرائعة .

وكانت توجد كذلك عدة وسائل أخرى للاستغاثة ، منها أن يعلق المرء ثيابه على خيمة رجل ؛ فيصبح صاحب الخيمة — ولو كان غائبا — حامى هذا المستجير منذ تلك اللحظة[3] ، أو أن يمسك المرء بملابس

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٢) المستطرف ج ١ ص ١٨٨ .

(٣) هكذا استجار « عبيد بن جرى » بمعز . الأغانى ج ٢ ص ٣٤٨ .

رجل من خلفه قائلا له : « هذا رباط من استجار بك[1] » ، أو أن يذهب إلى ربع حرام .

ولم تكن هناك ملاجئ بمعنى الكلمة كما كانت الكنائس فى العصر الوسيط بإجماع أهل أوربا ، وإنما كثيرا ما كان يعلن سيد ذو بأس أن هذا الموضع أو ذاك موضع حرام وأنه فى حمايته . وهكذا أعلن مسعود أن خيمة زوجته ملجأ لكل من لاذ بها من المقاتلين الأعداء[2] .

ولقد أقر القوم ، دون أن يكون بينهم على ذلك شرط صريح ، حرمة القبور . فمن لاذ بقبر فقيد عزيز لديك ، ضمن أنه قد أفلت من ثأرك .

لقد احتمى الشاعر « حماد » بضريح أبي عدوه ، فلم تخب ثقته . ورأينا كيف التجأ الشاعر « الكميت » عندما طارده الخليفة « هشام » إلى قبر « معاوية بن هشام » فعفا عنه .

ولما استولى « صلاح الدين » على دمشق ، أهين أحد أهلها ، وعبثًا عرض شكواه على القاضي ، فمزق ثيابه على قارعة الطريق وصرخ : « نور الدين أين أنت يا نور الدين ؟ » ، ومضى — وقد تجمهر وراءه الشعب — يبكي على قبر ذلك الأمير . وأنبئ بذلك « صلاح الدين » فأمر بإنصافه[3] .

---

(١) كاترمير : المرجع السابق ذكره ، ص ٢٠٣ .

(٢) راجع فصل « تعظيم المرأة » .

(٣) كلود ماران . المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٢٤٠ .

وحسبنا هذه الأمثلة. ولننظر الآن فى كيفية انتهاء النجدة. من البديهى أن الرجل إذا تخلى عمن استجار به لحق به العار ، واتخذ اسمه الشعراء — فى أبياتهم الخالدة التى تتناقلها الأجيال — رمزًا للمذلة والهوان . لذلك لم يكن مما يخالف روح العرب ، بل كان من الشكليات التى اصطلحوا عليها ، أن يحل المجير والمستجير فى نهاية الأمر ما كان يربطهما من روابط : وغنى عن الإيضاح أن الحماية كانت تخبو من تلقاء ذاتها بتحقق الغرض الذى قامت من أجله ، أو بموت أحد الطرفين المتعاقدين . غير أن المحمى قد يعرض له قبل تمام الغاية من الأسباب ما يدعوه إلى أن يتحرر من وصاية حاميه ورعايته . وفى تلك الحال كان عليه أن يقنع حاميه ، بأن يعدل عن حمايته . فإذا اتفقا على ذلك ، أعلن الطرفان على الملأ انقضاء الميثاق الذى كان يجعل منهما أعضاء أسرة واحدة ، كما حدث بين عثمان والوليد :

كان عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة ، فتفكر فى نفسه يومًا فقال : والله ما ينبغى لمسلم أن يكون آمنا فى جوار كافر ورسول الله صلى الله عليه وسلم خائف . فجاء إلى الوليد بن المغيرة فقال له :

— أحب أن تبرأ من جوارى .

— لعله رابك ريب .

— لا ، ولكن أحب أن تفعل .

— فاذهب بنا حتى أبرأ منك حيث أخذتك .

فخرج معه إلى المسجد الحرام . فلما وقف على جماعة قريش ، قال لهم :

ـ هذا ابن مظعون قد كنت أجرته ، ثم سألنى أن أبرأ منه ، أكذاك يا عثمان ؟

قال : نعم .

ـ اشهدوا أنى منه برئ .

وجلس عثمان مع القوم (من قريش) ، فأنشدهم لبيد :

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

فقال عثمان : صدقت . فقال لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل . فقال عثمان : كذبت . فلم يدر القوم ما عنى ، فأشار بعضهم إلى لبيد أن يعيد ، فأعاد ، فصدقه فى النصف الأول وكذبه فى الآخر لأن نعيم الجنة لا يزول . فقال لبيد :

ـ يا معشر قريش ، ما كان مثل هذا يكون فى مجالسكم .

فقام أبى بن خلف ، فلطم وجه عثمان . فقال له قائل :

ـ لقد كنت فى منعة من هذا بالأمس .

فقال له :

ـ ما أحوج عينى هذه الصحيحة إلى أن يصيبها ما أصاب الأخرى من الله[1] !

---

(١) الأغانى ج ١٤ ص ٩٦ .

ونستخلص من هذه الدراسة أن الحماية كانت فعلا رسميا ، يعلن المستجير طلبه إياها ، ويعلن المجير منحه إياها ، ويعلن كلاهما عدولهما عنها . إنها تتضمن استغاثة رجل فى ضائقة برجل ذى بأس ليعينه على بلوغ غاية معينة . وتستتبع هذه الاستغاثة تدخلا نشيطًا دائبًا من ناحية المجير فى سبيل الثأر للمستجير أو الدفاع عن مطلبه . على أن العرب ، إلى جانب هذه الحماية الفعالة ، والتى تختلف هدفًا ومدى ونشأة ، كانوا يعرفون لونًا آخر من الحماية ، ثابتًا سلبيا عاما ، حماية يسديها الجميع بلا تمييز ، من نساء أو رجال ، ومن محاربين أو صناع . تلك هى الحماية التى تصدر عن الضيافة . وهنا ينبغى أن تفهم الضيافة بأوسع معانيها ، فلقد كان حسب المرء أن يجتاز باب دار أو أن يحظى فى أضيق الحدود ، ولو عن مكر ، بكرم أو سعى رجل — وليكن كوبا من الماء ، أو « العيش والملح » ، أو قطعة من حبل تستعار لكى يبلغ الدلو ماء البئر — حتى تنشأ رابطة من روابط الضيافة تبسط على الضيف الحماية . ولم يكن المضيف ملزمًا بأن يعتنق منازعات ضيفه ، ولا بأن يثأر له ، وإنما كان يدين له بأن يحفظه سالمًا وبأن يقيه أذى الشمس والمطر كما يدرأ عنه ضربات أعدائه . إن الضيف فى بلاد العرب مقدس ، يعتبره القوم موفدا من قبل السماء التى ترزقهم ، وعليه مناعة — إذا صح القول — إلهية . وكانت الخيمة ملجأ حراما ، وأدنى لقمة يتناولها تحتها ألد الأعداء تحول البغض رعاية . . . وها هى ذى فى الختام بعض الطرائف :

ذات مساء رحبت فاطمة بنت الخرشب بطارق أقبل يسألها الضيافة . ولعل الطارق أثر فى رأسه التعب من ناحية ورائحة المسك التى تفوح بها مضيفته الحسناء من ناحية أخرى ، فدنا منها واجترأ على أن يغازلها ، ولكن السيدة الوقور دعته إلى الاحتشام . غير أن صوت الهوى لم يزل يزمجر فى قلب الفتى ، حتى غلبته شهوته ، وأمسك بفاطمة يريد أن يعتدى عليها ، فدفعته فاطمة عنها ونادت : « إلىّ يا ربيع . إلى يا ولدى . » وهرع ربيع » فقالت له : « يا ولدى هذا الرجل أراد أن يفضحنى » . وأخرج ربيع سيفه ، وشهره ثم تركه يسقط ، وصاح : « كلا . لن يقال إننى فضحت أبى ، وفضحت نفسى بسفك دم ضيفنا » . وخلى سبيل الرجل .

ألا تذكركم هذه القصة بمسلك « روى جوميز دى سيلفا » إذ كشف وجود « هرنانى » لدى « دونيا سول » وحمى ضيفه من غضب الملك « كارلوس » ؟ . . . مع هذا الفارق ، وهو أن الشيخ « جوميز » لم يفته أن ينفخ فى البوق ساعة راح « هرنانى » يقتطف السعادة . . .

وبعد أن عاد « معن بن زائدة » من إحدى المعارك ، استعرض الأسرى الذين كان مقدراً لهم أن يعدموا . واستوقفه واحد منهم وسأل أن يشرب ، فجىء بالماء، ولما فرغ من الشرب جميع الذين كان الموت ينتظرهم ، قال الأسير الذى خطر له أن يستثنى : « والآن يا معن بن زائدة، هل ترفع على يدك ضيوفك ؟ « فأمر معن بن زائدة بإطلاق سراح

أسراه . وقالوا له : « إنك أشرف بعفوك منك بنصرك » .

وبعد أن فتح عمرو بن العاص مصر ، أراد السير إلى الإسكندرية . فأمر بنزع فسطاطه ، فإذا فيه يمام قد فرخ ، فأخبروا عمرًا بذلك ، فقال : « لقد تحرم بنا متحرم » . فأمر بالفسطاط فأقر كما كان ، وأوصى به من بقى هناك من القبط[1]. وتذكارًا لهذه الحادثة ، سميت المدينة التى قامت فى السهل شمالى منفيس ، والتى أصبحت العاصمة (من سنة ٦٤٠ إلى سنة ٩٦٩ عندما أسست القاهرة) باسم « الفسطاط » أى الخيمة .

وهذه أخيرًا ، عن الأتليدى ، لمحة لا يمكن أن يلم بها القارئ دون أن يختلج بالتأثر . إنها أشبه بأجمل المواقف فى مسرح « كورنى » . وإنها لتشرف الإنسان وترفع من قدره :

عند سقوط الدولة الأموية ، مضى العباسيون يتعقبون بنى أمية ويذبحونهم فى غضب مستعر . وهرب إبراهيم ، أحد أمراء الأسرة المخلوعة ، وهام فى شوارع الكوفة لا يدرى أين يلتجئ ، وأبصر دارًا ذات فناء جد فسيح ، فدخل ، ووجد نفسه أمام فتى وسيم على صهوة جواد لم يكد يصل ، يصحبه موكب من الخدم والحشم . وإذ سأله هذا الفتى ماذا يريد ، أجاب : « إننى شقى أخشى على حياتى ، وجئت ألوذ ببيتك . » فرق له الفتى ، واقتاده إلى غرفة يختبئ فيها ، ومكث معه برهة يشرف على

---

(١) راجع السيوطى : حسن المحاضرة . وزيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٢ ص ١٨٠ .

تزويده بكل ما قد يبتغى من غذاء وكساء . ولم يوجه إليه مضيفه أى سؤال . ولاحظ إبراهيم مندهشًا أن الفتى يمتطى كل يوم جواده ويخرج مدججا بالسلاح وعن له أن يسأله عن الذى يحمله إلى القيام بهذه الجولات المنتظمة ، فأجابه الفتى : « لقد ذبح إبراهيم بن سليمان أبى وهو رابط الجأش ، وعلمت أن القاتل الآن مضطر إلى التخفى ، وإنى أبحث عنه كل يوم آملا أن ألقاه وأشفى من دمه غلتى . » وشده إبراهيم من هذا القدر الذى قاده إلى بيت ألد أعدائه ، وسأل الفتى ما اسمه ، وما اسم أبيه ، وبعد أن تأكد من أنه هو المذنب ، قال لمضيفه : « إنى مدين لك بأفضال عظيمة ، والوفاء يحتم علىّ أن أدلك على عدوك وأن أوجز بحثك عنه . » واستفهم الفتى عما يعنيه ، فأضاف إبراهيم : « إننى أنا ابن سليمان قاتل أبيك ، فعاقبنى على جرمى . » فرد عليه الفتى : « لعلك تعس أبهظك الدهر وتود أن تطلقك من ربقته ميتة سريعة . » ولما ذكر إبراهيم من التفاصيل ما قضى على تشكك مضيفه ، حال وجه الفتى ، وملأت عينيه الدموع ، وظل برهة حانى الرأس ، ثم قال لإبراهيم : « سوف تلحق يومًا بأبى أمام قاض يحكم بالعدل ، وأما أنا فلن أحنث بالوعد الذى قطعته لك ، ولكنى أخشى ألا أتمالك نفسى دائما ، فامض ولذ بمكان لا يثير فيه وجودك ذكريات تحز فى القلب . » وقدم له فى الوقت ذاته مبلغ ألف دينار من الذهب . ورفض إبراهيم الهبة ، وانصرف صامتا[1] .

---

(١) كاترمير : المرجع السابق ذكره . انظر قطعة من الاتليدى فى « مجانى الأدب » جـ ٣ ص ٢٠٩ . وانظر فى فلوريان لمحة مشابهة ص ١١٣ .

الخلاصة

تلك كانت أخلاق الفروسية عند العرب . لم نحرص على إعادة رسم صورتها رغبة منا فى الاستمتاع بتأملها وإثارة إعجاب الناظر بأطلال عالم قد اندثر ، بل سعيا إلى استخلاص بعض الدروس العملية النافعة من الوقائع التى لاحظناها. إن التاريخ ، إذ يقدم لنا صورة من الأحداث الماضية جلية واضحة ، ينبغى أن يعيننا فى تفهم مشاكل العصر الحاضر فهمًا صحيحًا نزيها . وليست مصائر الشعوب أحكاما صدرت من قبل، ولا هى ارتجالا وليد اليوم العابر ، وإنما يشاد صرح المستقبل بمواد الماضى ، وقد شكلتها أيد أكسبتها الخبرة وروح التنافس مهارة وحذقا . لقد تحول كثير من معابد مصر القديمة إلى كنائس صغيرة أو كبيرة ، وتحولت بعض الكنائس إلى مساجد . وهكذا تتغير العناوين ، وتتحدد العقائد، وتتخذ الحضارة معنى يختلف باختلاف البيئات والقرون ولكن تظل أعماق الطبيعة الإنسانية باقية كما هى : نزوعًا لا ينقطع إلى تحسين وجودها ، وتوقًا متصل الدأب إلى كمال غير محدود . إن جميع البشر يسيرون نحو غاية واحدة ، ولكن كلا منهم يسعى فى طريقه وبوسائله الخاصة . ولن يستطيع شعب أن يتطور وأن يتم نموه إلا إذ تبع عبقريته

الأصيلة ولن يفوق أثر التربية والعلم والتلاقح أو التطعيم الثقافى فى مزاج جنس من الأجناس ، أثر الأصباغ فى ملامح وجه من الوجوه .

إن الماضى فى نفوسنا لا يموت أبدا[1] . والعربى وإن ارتدى أسمالا ينبض فى صدره قلب نبيل كريم . من المهم إذن أن يدرس كل شعب تاريخه وأن يتعرف نفسه . ومن المهم كذلك أن تتعارف الشعوب . فإن بعضها يعتمد على بعض ، وينبغى أن تتعاون جميعا فى خلق الاتساق العام . وعند إنشاد اللحن الدولى الجامع ، يصدح كل شعب بنغمته الخاصة . إن موسيقى الغابات تتألف من أصوات جميع الكائنات التى تسكنها .

وإن مبدأ « اعرف نفسك بنفسك » مبدأ جوهرى بالنسبة للأمم كما هو بالنسبة للأفراد . فليس من حق الشعوب أن تنكر قدر نفسها ولا أن تبالغ فيه ، وإنما عليها — بعد أن تحصى مواردها — أن تعمل لا لتحفظ تراث السلف فحسب بل لتنقله إلى الخلف مزيدا قد زخر بما أضافت إليه . ولا ينبغى أن يتعمق العرب فى تاريخ بلادهم لكى يستسلموا للطرب الذى تغمرهم به أمجادهم الغابرة ، بل ليبحثوا فيه عن فضائلهم العريقة ويجدوا المسلك الذى يؤدى بهم إلى النور ، والسبيل الذى اختطه مصيرهم .

وليست عواطف الفروسية التى استعرضناها مزية ينفرد بها عصر أو جنس أو بلد . فمن المآثر العديدة التى تشهد بالوفاء والسخاء والحلم ،

---

(١) « اننا نكل ، ونلطف ، ونتستر على ما وضعته الطبيعة فينا ، ولكننا لا نضع فيها شيئاً » (فولتير : القاموس الفلسفى ، كلمة « خليقة »)

ومن أمثلة التسامح والشهامة والمروءة التى يتحلى بها هذا الكتاب ، ما لقتطفناه على ضفاف الفرات وضفاف الأردن وضفاف النيل وضفاف الوادى الكبير ، ومنها منا سبق ظهور الإسلام ومنها ما أتى بعده . وهل يعنى ذلك سوى أن تلك فضائل عامة تنتمى إلى جميع البلاد وجميع الأجناس ذات الثقافة العربية واللغة العربية والذكريات والتقاليد العربية ، لا فارق بين جنس وجنس أو بين دين ودين ؟ إن الأرض وحدها لا تصنع الإنسان . والوطن يتألف من التربة التى تنبت الأبدان ، ومن الآداب والفنون التى تنشئ النفوس . وفى المصريين — مسيحيين أو مسلمين — وفى السوريين وأهل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب نفس الروح العربية التى نجدها لدى أهل العراق أيضا . وعلى الجميع واجب مزدوج هو السعى الحثيث لإنهاض البلاد التى ولدوا فيها ، وإحياء الفنون والآداب والفضائل العربية التى أصبحوا وحدهم ورثتها الشرعيين .

وإن كان ثمة نقص وتخلف فى العالم العربى ، فمرده علة أولى تراكمت عليها علل أخرى عديدة ، معقدة ، تتميز فى كل من البلاد العربية على نحو خاص . ولنقتصر هنا على اجتلاء العلة الأساسية لتخلف الشعوب العربية ، ومصدر الداء الذى أصابها : إنه نظام الحكم التركى .

أينما حل الأتراك أنجبوا الدمار . وليس تاريخهم ، من أول صفحاته إلى آخرها ، إلا أعمال التخريب . كانت الحرب صناعتهم الوحيدة . وكانوا يقدمون عليها لمجرد إشباع شهواتهم الوحشية ، بسفك الدماء الغزيرة ،

ومل مخازنهم بالغلال ، وتجديد نساء حريمهم ، والاستزادة من غطرسة الغزاة . كان إغراء الغنيمة — لا الإيمان برسالة — هو الذى يدفعهم إلى القتال . وكانوا يفتحون إقليما أو بلدا ، حتى إذا نهبوه وعاثوا فيه فسادا ، واعتصروا خيره اعتصار الليمون ، وأخرجوا منه آخر حبة وآخر قطرة ، مضوا إلى إقليم آخر أو بلد آخر يواصلون فيه تدميرهم . . . ثم كان صدهم أمام أبواب « فيينا » ، وكان تقهقرهم الذى بدأ منذ قرنين وتلاه اندحارهم فى الحرب العظمى . . .

لقد تسرب الأتراك من عهد بعيد إلى الدولة العربية . جلبت الحروب والغارات فيما وراء « الأكسوس » و « سيرداريا » حول بحر قزوين عددا كبيرا منهم إلى أسواق الرقيق . وكان العرب يشترونهم ليتخذوا منهم خدما ، وليضيفوا إلى قصورهم زينة ورفاهية . وفى أيام الخليفة « المنصور »[1] أدخلوا سلك الجيش ، وكونوا فيما بعد حرس الخليفة الخاص .

وكان العباسيون غير آمنين فى بغداد . كانوا يخشون أن يروا عرشهم يهوى من تحتهم ويستقر فى أيدى سلالة « على » التى أخذ أنصارها يتكاثرون من يوم إلى يوم . وهكذا اتجهوا إلى إحاطة أنفسهم بأجانب لا تعنيهم المنازعات بين أسرة وأسرة ، ويستطيعون أن يعتمدوا على ولائهم ولا سيما وهم يجزلون لهم المرتبات . لقد اعتمدوا أول الأمر على فرس خراسان ، غير أن هؤلاء كانوا ذوى طبع مرن فسرعان ما تمثلتهم الأمة

---

(١) « المعتصم » لا « المنصور » . (تحقيق) .

العربية وأصبحوا عربًا يعتنقون مذاهب القوم السياسية ويتحزبون، ولم يكن بد من إقصائهم . ولما كان الأتراك قد أظهروا شجاعة ونظامًا فى المعارك ، وكانوا من ناحية أخرى يستعصون تمامًا على المؤثرات العربية، فقد بدا أنهم خير من يحل محل الفرس . ولم يتردد الخلفاء فى أن يعهدوا إليهم بحراسة أشخاصهم وعرشهم . ولم يلبثوا أن ندموا على ذلك ندما مضاعفا . فلقد راحت مطامع المماليك ومطالبهم تشتد حيال سلطة كانوا يعلمون أنها رهن تصرفهم . وعند وفاة المعتصم (سنة ٨٤٢) ، كان الأتراك قد أصبحوا سادة الدولة الحقيقيين . كانوا أصحاب القصر ينصرون أسخى من يرزقهم، ويعينون أو يعزلون من الخلفاء ما شاءوا . وكان رئيسهم الذى يلقب بأمير الأمراء ثم بمعز الدولة[1] وبالسلطان ، يركز فى شخصه جميع السلطات الحربية والمدنية . ولم يعد للخلفاء ، وقد انزووا فى القصر كالسجناء ، إلا السلطة الدينية . وبعد سقوط بغداد (سنة ١٢٥٨) التجأوا إلى مصر ، حيث عاشوا حياة مغمورة حتى سنة ١٥١٦ . وفى سنة ١٥١٧ انتزع سلطان القسطنطينية سليم الأول تلك السلطة الدينية من يد آخر العباسيين ، ونودى به خليفة للنبى ، وأميراً للمؤمنين .

ذلك موجز تاريخ العلاقات بين الأتراك والخلافة ، اقتصرنا فيه على الخطوط الرئيسية .

---

(١) « معز الدولة » ديلمى وليس تركياً .

إن المماليك الذين أهابت بهم ثقة ولى الأمر لتدعيم عرشه قد أسرعوا إلى تقويض ذلك العرش . لقد استقروا فى الدولة ، وسرعان ما استهانوا بها ، وأخلوا بنظامها ، وأدوا بها إلى الإنحلال ، لكى تؤول لهم فى آخر الأمر ويتملكوها . وما إن سادوا على البلاد العربية ، حتى مضوا ينجزون فيها عملهم ، ألا وهو التدمير . لقد بذلوا أعنف الجهد وأطوله وأقساه فى هدم كل ما هو عربى والقضاء عليه قضاء شاملا . كانوا يبغضون عبقرية سادتهم الأنيقة الرقيقة ، فدأبوا على محو آثار حضارة استهجنوها إذ رأوا فيها هوانا لهم وزراية بهم . أعلنوا الحرب على الأدب والفن والعواطف بل وعلى الدين أيضا . وحولوا إلى صحراء جرداء أرضًا اشتهرت فى القدم بأنها أخصب بقاع الدنيا . ونفوا لغة من أجمل اللغات كانت مركبًا رشيقًا لأنبل الأفكار ، وامتد معولهم الآثم إلى المبانى البديعة التى صاغ الشعر أحجارها ، بل وإلى المنشآت الدينية ، وراق لهم فوق كل شىء أن يخضعوا بوقاحتهم شمم العرب . وطاردوا الكرم والحياء والنزاهة والشهامة واحترام المرأة وشرف العهد ، ولم يستريحوا إلا يوم لمسوا أن الشعوب التى استذلوها قد وضعت على وجوهها قناعًا يشبه وجوههم القبيحة .

إنهم الأتراك ، والأتراك وحدهم ، هم الذين أسفوا وانحطوا بالنفس العربية — أجل ، الأتراك لا الإسلام .

لقد راح معظم الكتاب الأوربيين ممن احترفوا الكتابة فى الشئون الإسلامية ، أو ممن عرضوا لها — سواء فى ذلك المؤرخون والفلاسفة والساسة

والمستعمرون والرحالة والصحافيون — يبينون أن الإسلام وحده هو المسئول عن فساد الحضارة العربية وتدهورها . ويمكن التماس العذر لهذا الإجمال الغريب فى قصور هؤلاء الكتاب عن دراسة النصوص العربية دراسة عميقة، وفى أن الكتب التى تنشر على التوالى ما أكثر ما تتشابه . . . كما يمكن تفسير هذه الظروف الظاهرة أيضًا بأن هناك من الأخطاء المقبولة المكررة ما يضيرك إذا حاولت تصحيحه أو اقتلاعه . . . وما الذى يعيبونه على الإسلام ؟

قالوا إن الإسلام — يهبط بمستوى المرأة ويتعمد إذلالها . غير أننا أثبتنا أن النبى كان يسعى دائما إلى تحرير المرأة وإلى صيانة مصالحها ، وإلى تحسين وضعها ماديا وخلقيا .

ولا أدل على ذلك من أنه للنهوض بالمرأة المسملة يكفى الرجوع إلى تعاليم النبى الحقيقية وتطبيقها بحيث تتمشى وحاجات العصر . وأما تعدد الزوجات والطلاق — وهما فى سبيلهما الطبيعى إلى الزوال — فيمكن إلغاؤها شرعا وقانونا ، كما أشرنا إلى ذلك فى فصل « المرأة حسب القرآن » . وتطبيق النصوص القرآنية تطبيقًا دقيقًا يكفل عن سعة للمسلمة العصرية ممارسة حقوقها المدنية والوطنية التى تستطيع باعتدال أن تسعى إليها . وهل يجوز بعد ذلك أن يقال إن الإسلام يحض على ازدراء المرأة ويعترض طريق تحريرها ؟

وقالوا إن الإسلام غير متسامح ، بينما ينص القرآن على أنه « لا إكراه

فى الدين » . وإلى ما ذكرنا من الأمثلة المتعددة على روح التسامح لدى المسلمين ، سواء فى علاقتهم بأهل الأديان الأخرى أو بأهل دينهم من الفلاسفة وأصحاب المذاهب المختلفة ، سنضيف شهادة « رينان » فقط ، وهو رجل لا يمكن اتهامه بالعطف على الإسلام . إنه يقول : « لقد أقام حب العلم والأشياء الجميلة إبان القرن العاشر فى هذا الركن الممتاز من الدنيا (يعنى أسبانيا) تسامحا لا تكاد الأزمنة الحديثة تضرب لنا منه مثلا . فلقد كان المسيحيون واليهود والمسلمون يتكلمون نفس اللغة ، وينشدون نفس الأشعار ، ويشتركون فى نفس الدراسات الأدبية والعلمية . إنهم أسقطوا جميع الحواجز التى تفصل بين الناس ، وتلاقوا كلهم فى بناء الحضارة العامة . وأصبحت مساجد قرطبة — حيث انتظم آلاف من الطلبة — مراكز نشيطة للدراسات الفلسفية والعلمية » .

وضع مكان أسبانيا فى القرن العاشر الدولة العربية فى عهد العباسيين ، أو مصر فى عهد الفاطميين ، تحصل على نفس اللوحة ، صورة هذا التسامح والعمل العقلى التى تقدمها بغداد أو القاهرة ، أو سمرقند أو القيروان .

وقالوا أيضا إن الإسلام ينفى بذل الجهد إذ يعلم الناس أن كل شئ « مكتوب » ، غير أن إيمان الإسلام بالقدر لا ينصح بالجمود والهمود ، ولا يبطل الحركة والتطور ، بل إنه يدعو إلى نقيض ذلك ، وحسبنا برهانا

ما جاء فى القرآن : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون[1] ».

أولا يعنى ذلك أن يقلع المرء عن السير بلا تبصر فى السبيل التى اختطها أسلافه ، وأن يسير بجرأة فى طريق الرشد والحق ؟

ولعل النصوص التالية أشد وضوحا .

« لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت[2] »

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[3] » .

وكيف يستطاع التوفيق بين قدرية عمياء وبين هذه المسئولية التى وضعها القرآن على كاهل الإنسان الذى يحاسب على أعماله خيرًا كانت أم شرا ؟

وكيف يستطاع التوفيق بين القدرية وبين الأمر بأن يصلح الإنسان شأنه ويحسن حاله ويكمل نفسه دون أن ينتظر تدخل الله ؟

وقالوا أخيرا — وهو زعم خطير — إن الإسلام عدو للحضارة والتقدم . ولنا أن نرد على هذا الاتهام باستعراض عدة قرون من التاريخ . وهل ينكر منكر أن هناك « حضارة عربية » ؟ لقد ثار « رينان » بشدة — فى محاضرة شهيرة عن « الإسلام والعلم » ألقاها يوم ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣ — على فكرة « الحضارة العربية » ، وقال فى تهكمه اللاذع إن ما اصطلح الناس

(١) سورة المائدة ، ١٠٤ .

(٢) سورة البقرة ، ٢٨٦ .

(٣) سورة الرعد ، ١٣ .

على تسميته بالحضارة العربية ليس إلا الحضارة اليونانية أذاعها ونقحها — لا العرب أنفسهم — بل السوريون والكلدانيون والفرس والأسبان ممن أصبحوا عربًا بالفتح أوباللغة . هب أننا تركنا رأى « رينان » بلا مناقشة ، وهب أننا محونا بجرة قلم وجود حضارة عربية ، فحسبنا أن نستشهد هنا ببعض الأحاديث النبوية لنثبت أن الإسلام فى جوهره يشجع حب الاستطلاع العلمى ونشر المعرفة :

— طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب .

— فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد .

— من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة .

— خرج رسول الله صلى عليه وسلم ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد وإذا هو بحلقتين : إحداهما يقرءون القرآن ويدعون الله ، والأخرى يتعلمون ويعلمون . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كل على خير ، هؤلاء يقرءون القرآن ويدعون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون ، وإنما بعثت معلما ، فجلس معهم .

— أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علمًا ثم يعلمه أخاه المسلم .

— من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار[1] .

وفيم الإكثار من الاستشهادات وثمة حقيقة لا جدال فيها ، وهى أن

---

(١) جميع هذه الأحاديث واردة فى مسند ابن ماجة حـ ١ .

العلم قد ظل قرين الدين طالما كان الاهتمام بالدين قويا ، فما إن ظهرت الأسرات الأجنبية حتى كان لذلك أثر واضح فى ضعف شأن الدين فى أنفس الناس ، وإهمال جانب الدرس . ولقد تنبأ بذلك النبى حين قال :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا .[1] »

الرؤساء الجهال ! هلا تعرفتم الأتراك ؟

لقد بكر الأتراك بالمجىء إلى الإسلام ، تغريهم المنفعة أكثر مما تحدوهم الرحمة ، فكوروا العمائم ، وقاتلوا فى ظل الراية الخضراء ، ونحروا الخراف فى الأعياد ، وتباهوا بالصوم والزكاة — ولكن نفوسهم ظلت تتارية همجية ولم يفلح الإسلام فى تهذيبهم . وعندما تولى هؤلاء المتوحشون الأمر عمدوا إلى الشريعة يفسرونها على هواهم ، لتطابق أوضاعهم أو تقضى رغبات لهم عابرة .

إن هؤلاء الضالين فى الإسلام قد ضللوا المسلمين ، وأدوا بالدين إلى أن يعكس صورتهم ، وهم الذين راحوا ينافقون ويدعون أنهم حماة حمى الإيمان . وبفعلهم بدا هذا الدين لقصار البصر جملة من الصيغ العتيقة ، وشريعة استسلام خانع وتعمية ، فى حين أنها شريعة نور وحضارة وتقدم . فرق بين العربى والتركى ، وليس الإسلام هو هذا الهزل التركى . لقد

(١) صحيح البخارى : باب كيف يقبض العلم .

استخدم الأتراك الذين مجرد وسيلة لبلوغ غاياتهم . ولكى يوطدوا سلطانهم ، بأبخس الأثمان ، صدروا من ناحية فكرة القدر المحتوم ، فكرة الإذعان لهم لا الثورة عليهم ، ومن ناحية أخرى فكرة العجز عن إدراك العقائد غير الملموسة ، لمنع العرب من البحث العقلى ، وإغراقهم فى الجهل ، خشية أن يفسروا النصوص القرآنية ، وأن يناقشوا أسس السيادة ، وأن يكشفوا ما اغتصب الدخيل من حقوقهم . والجهل ضمان لبقاء الأمر الواقع . ولقد حيل بين العرب وبين الدرس أيضا لأن الدرس والتقدم كانا دائمًا ألد أعداء الهمجية .

والحمد لله ، لقد تخلص العالم العربى من التتار . فليرجع العرب فى حرية إلى نبع دينهم النقى ، ولينتهلوا منه احترام للمرأة ، ووجوب التعليم ، والتطور ، والارتقاء . وليستأصل العرب عامة من قلوبهم — مسيحيين أو مسلمين — جراثيم الشر التى بذرتها الهمجية التركية ، وليعملوا على ازدهار اللغة العربية والحضارة العربية من جديد ، وليثوبوا إلى تقاليد آبائهم فيتصفوا بالرجولة ، ويعرفوا قدر أنفسهم ، ويشعروا بكرامة الإنسان وكرامة المواطن . وليعلموا أنهم ينتمون إلى بلد قبل أن ينتموا إلى دين . وليكونوا أهل صراحة ، وولاء ، وتسامح ، ومروءة — بكل معانى هذه الكلمة . وتوخيًا للإيجاز نقول فليكونوا عربًا لا عبيدًا للأتراك. وهذه الفضائل ، إنهم لم يفقدوها . إنها كامنة فى نفوسهم ، وما عليهم إلا بعثها

وإحياؤها وتنميتها ونشرها وتعميمها . وبشيء من الصبر ، والعناية الذكية ، والإرادة المثابرة ، والتوجيه الحكيم ، تؤتى الشجرة التى أهلت ورودها الجميلة المعهودة .

* * *

إن جهل الشعوب بعضها ببعض لواقع يبلبل العقل ، فكأنها تسكن كواكب مختلفة ! على جميع الأمم إذن أن تطرح ظنونها القديمة ومصطلحاتها البالية ، وأن تفطن لحقائق العالم الراهن ، والأوضاع الجديدة التى انجلت عنها الحرب العظمى . فلن تكون بعد اليوم سيطرة وتبعية ، ولن يكون سيد ومسود ، ولن تكون بين البشر أجناس عليا وأجناس سفلى . لقد أعلنت حقوق الإنسان وحقوق الشعوب فى جميع أرجاء الدنيا ، وتجاوبت أصداؤها ، وأثبتها النصر وأقرها ، بحيث لا يجوز لامرئ أن يتجاهلها أو يتناساها أبدا .

لقد انقضى العصر الذى كان يستبيح فيه الأوربى أن يستغل أرضا غير أرضه ، يتجبر على أهلها ، ويسومهم العذاب ، ويتحدى مطالبهم الشرعية . إنما عليه أن يعين الشعب المتخلف معونة صديق مرشد ودود . وأحرى بالأوربيين أن يتعرفوا عواطفنا ومبادئنا وروح الفروسية الفعالة فى حياتنا ، فهى خير ما يرسم لهم مثل العهد والجوار .

إن الناظر فى الريف الواحد يرى حقول القمح والذرة والشعير متجاورة ،

وفى البستان الواحد ثمار التين والزيتون والأعناب تنضج معا ، وما أجمل أن يرى جنبًا إلى جنب فى رحاب الله ، تحت شمس واحدة ، وفى سبيل غاية واحدة هى الحضارة والتقدم ، ثقافات متنوعة تنمو وتزدهر : الثقافة العربية ، واللاتينية ، والإنجليزية السكسونية ، والصقلبية . . . وذلك كله لمتاع العقل وخير الإنسانية .

القاهرة ١٩١٤ — باريس ١٩١٦